خصائص مناهج المفسرين في القرن الثامن الهجري (عرض وتحليل)

د.عبد الجواد سالم عثمان(*)
كلية العلوم الإسلامية
جامعة الموصل

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين،

يتألف البحث من خمس مباحث، وخاتمة ونتائج، ومصادر ومراجع.

ففي المقدمة تحدث الباحث عن النهضة العلمية في هذا القرن وخطة البحث وفي المبحث الأول تحدث عن أهم الخصائص التي اعتمد عليها المفسرون في تفسير القرآن بالقرآن وفي المبحث الثاني تحدث عن المنهج الأثري وما اثر عن النبي (ﷺ) والصحابة الكرام، وفي المبحث الثالث تحدث عن المنهج اللغوي وما تناوله المفسرون من قواعد سواء أكانت إعرابية أو لغوية أو إقرائية، وفي المبحث الرابع تحدث عن المنهج الفقهي وما تخلله من تطور زماني ومكاني واعتماد المفسرون على المذاهب الأخرى، وفي المبحث الخامس تحدث عن ابرز الحقائق العلمية التي تناولها المفسرون في أبحاثهم.

The Features of the Explainers in the Eighteenth Century A.H. (Displaying and Analysis)

SUMMARY

This paper consists of Introduction, five topics, Conclusion, Results, sources and References.

In the Introduction, the researcher, talks about the Scientific Renaissance in this century and the research's plan.

(*) مدرس في قسم أصول الدين.

And in the first topic, he talks about the most important features that those explainers have depended on in the explanation of Quraan by Quraan.

And in the second topic, he talks about the antique procedure and what is known about the Prophet (Peace Be Upon Him) and the generous companions.

The third topic talks about the linguistic procedure and the rules that they have delt with, either analytic, linguistic and those related with reading Quraan.

The fourth topic talks about the procedure of Jurisprudence and what it intervenes from temporal and spatial development and the doctrines that they have depended on.

The fifth topic talks about the most outstanding scientific facts that their researches have delt with.

المبحث الأول

منهج تفسير القرآن بالقرآن

يعتمد هذا المنهج على القرآن الكريم نفسه، إذ يفسر القرآن بالقرآن، وهذا ما دعا إليه ابن تيمية[١] في مقدمته قائلا "إن اصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فانه قد فُسِرَ في موضع آخر، وما أختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر"[٢]. وهذا المنهج استمد من النبي (ﷺ) فيما بَيَّنَهُ لأصحابه لإيضاح المُشْكِل لديهم. وتابعه في ذلك المفسرون. ومن الأمثلة التي تشير إلى توافقهم في هذا المنهج، أن الآية القرآنية تفسر نفسها ضمن سياقها القرآني، وهناك آيات فسرتها آيات أخر في مواضع مختلفة في السور، فمن **النوع الأول** اخذ المفسرون يستنبطون منها التفسير ولايكتفون بما قاله سابقوهم، ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة يوسف ٥٣).

قال ابن تيمية: "فهذا الكلام لامرأة العزيز كما تدل الآية على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا**

خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف ٥٠– ٥٣).

فهذا كله من كلام امرأة العزيز، وسيدنا يوسف في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه"[٣].

فابن تيمية يرد في هذا النص على الذين قالوا بأن هذا كلام سيدنا يوسف (عليه السلام) فاستدل على أن الآية تنفي ذلك. وعقد ابن القيم[٤] فصلاً في تفسيره ليثبت أن هذا الكلام هو قول امرأة العزيز ويوسف (عليه السلام) لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه[٥].

أما الإمام ابن كثير[٦]. فقال عن الآية الكريمة: "تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي فأن النفس تتحدث وتتمنى، وبهذا راودته وهذا الأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام"[٧]. أما الإمام الخازن[٨] فقد جمع أقوال العلماء وقسمها إلى قسمين:

الأول: هو قول امرأة العزيز كما ذكرنا.

الثاني: هو قول يوسف (عليه السلام) وقال: (وهذه رواية عن ابن عباس، وهو قول الأكثرين، ذلك لما قال (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قال له جبريل: ولا حين همّت بك، فقال يوسف عند ذلك (وما أبرئ نفسي)[٩].

فتبنى الخازن للقول الثاني، هو ما ذكره ابن كثير في استعراضه لآراء إذ قال: "وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سواه"[١٠]. ثم نقل أقوال الصحابة والتابعين في ذلك، وخلص ابن كثير إلى أن: "القول الأول أقوى واظهر لان سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك"[١١].

ودافع ابن القيم عن القول الأول بقوله: "فان قيل: فما معنى قولها (ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قيل: هذا من تمام الاعتذار بالاعتراف فقالت ذلك، أي قولي وإقراري ببراءته... ثم قال: فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف (عليه السلام) لفظاً ومعنى"[١٢].

إن إصرار العلماء على كون هذا كلام المرأة، ما هو إلا دفاع واضح عن عصمة سيدنا يوسف (عليه السلام) من انه فكر بالمعصية.

والنوع الثاني من الآيات التي فسرت بآيات أخر في مواضع أخر، ما فسر به ابن كثير قوله تعالى ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأنعام ٢٧).

فبعد أن يذكر حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما شاهدوا قالوا مقالتهم هذه وتكذيبهم لرسلهم. فقال: "ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وان كانوا يظهرون لإتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ**﴾ (الإسراء ١٠٢) وقوله مخبراً عن فرعون وقومه ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ (النمل ١٤) ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر ويكون هذا اخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية هي العنكبوت فقال ﴿**وليعلمن الله الذين امنوا وليعلمن المنافقين**﴾ (الآية : ١١). وعلى هذا فيكون إخبارا عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب"[١٣].

ويسترسل ابن كثير في كلامه ويفسر آية في آية وموضوعاً في موضوع أخر ليناقش كثيراً من الآيات ويتوصل إلى معنى جديد.

أما ابن القيم فيقول عن هذه الآية الكريمة (الأنعام ٢٧) قد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية، وما أوردوا ما يشفي. فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً[١٤].

ثم ينقل قول المبرد والزجاج والواحدي ويقول بعدها:"فمعنى الآية –والله اعلم بما أراد من كلامه– أن هولاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها، وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته، ولا يعودون إلى تكذيب رسله"[١٥].

واستخدم الخازن الإعراب في توضيح الآية القرآنية، فقال: "يعني في النار فوضع (على) موضع (في) كقوله ﴿**عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ (البقرة ١٠٢) أي في ملك سليمان، وقيل معناه (إذا عرضوا على النار)، وجواب (لو) محذوف، والمعنى ولو ترى الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك يا محمد في تلك الحالة لرأيت أمراً عجباً وموقفاً فظيعاً"(١٦).

المبحث الثاني
المنهج الأثري

يعتمد هذا المنهج على ما أثر من قولٍ أو فعلٍ للنبي (ﷺ) والصحابة والتابعين (رضي الله عنهم). ونجده واضحا عند علماء التفسير المتقدمين كالإمام الطبري والإمام ابن أبي حاتم وغيرهما، والمنهج الأثري لا يجيز لأي مفسر أن يخوض في الآية القرآنية قبل أن يجمع إليها من السنة ما يتعلق بموضوعها، فإن لم يجد التجأ إلى أقوال الصحابة، لأنهم عايشوا التنزيل واقتبسوا من الرسول (ﷺ) وان لم يرفعوه إليه، ونقل السيوطي قول الحاكم في المستدرك "إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع إلى الرسول (ﷺ)"(١٧).

وقال الإمام الشافعي "فان لم يجد من السنة رجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح"(١٨).

وهذا ما استخدمه ابن تيمية في تفسيره ودعا إليه في اغلب كتاباته حتى قال عنه محمد أبو زهرة:" وسنجده سلفيا في تفسيره لا يعدو منهاج السلف، وكان منهاجه من كل الوجوه هو أراء السلف دائماً، ولا يتجاوزها إلى غيرها"(١٩).

وكذلك ابن كثير إذ يعد تفسيره من التفاسير المأثورة، حتى انه كان أوضح منهجا فيه من ابن القيم. ولا يقل تفسير الخازن عن سابقيه بالاعتماد على المأثور إذ يورد كثيرا من الأخبار والقصص عن الصحابة والتابعين، أما الإمام السمين الحلبي(٢٠). فقد أكثر من الاعتماد على الآثار في تفسيره لغريب القرآن.

وكثيرا ما نجد توافق المفسرين بالأخذ عن الصحابة والتابعين في تفسير الآية القرآنية مع شيء يسير من الاختلاف، فمنهم من يقدم أقوال الصحابة والتابعين ثم يعقد فصلا في بيان ذلك. ومنهم من يكتفي بأقوال الصحابة والتابعين.، أما في استخدام الشاهد الشعري –الذي كثيرا ما يتفقون على إيراده– ، فنرى في تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ (المدثر ١–٤). ان الإمام ابن القيم يذكر أقوال الصحابة والتابعين ومنها: عن ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا قذر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمه الثقفي:

واني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ ** **لبستُ، ولا من غُدرةٍ أتقنعُ**

قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب وهذا قول إبراهيم، والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير[٢١]. ويصل ابن القيم إلى نتيجة، فيقول: ولا ريب أن تطهرها من النجاسات وتقصيرها: من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام أصلاح الأعمال والأخلاق، لان نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بإزالتها والبعد عنها[٢٢].

أما إذا انتقلنا إلى ابن كثير فنجده يقول عن الآية الكريمة : "قال الاجلح الكندي عن عكرمة عن ابن عباس انه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية، قال لا تلبسها على معصية ولا على غدرة ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي.

فاني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ ** **لبستَ ولا من غدرةٍ أتقنع**

ويورد أقولا أخر، منها ما قاله ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون فأمر الله سبحانه وتعالى أن يتطهر، وان يطهر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية الكريمة جميع ذلك مع طهارة القلب"[٢٣].

والإمام الخازن يورد في الآية أربعة أوجه هي[٢٤] :

١– أن ينزل لفظ الثياب والتطهير على الحقيقة.

٢– أن ينزل لفظ الثياب على الحقيقة والتطهير على المجاز.

٣- أن ينزل لفظ الثياب على المجاز والتطهير على الحقيقة.

٤- أن ينزل لفظ الثياب والتطهير على المجاز.

وبعد أن يبين هذه الأوجه الأربعة يذكر قول ابن عباس فيها ويورد الشاهد الشعري نفسه.

فإذا أمعنا النظر في هذه الروايات عن المفسرين وجدنا أنها متشابهة من حيث المضمون ومتفقة من حيث المعنى، فهذا يدل على أنهم قد التزموا منهجاً واحداً في تفسير الآية القرآنية. وعن هذا يقول ابن تيمية "الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد"[٢٥].

ولا خلاف بين المفسرين في كون الطهارة معنوية أو حسية وهذا ما جعل الإمام الخازن يرجعها إلى أربعة أوجه بين فيها أن المعنى يشمل هذا وهذا.

المبحث الثالث

المنهج اللغوي

لما كانت اللغة هي الأساس لتفسير القرآن الكريم والمادة الأصلية التي يستمد منها فهم كتاب الله سبحانه وتعالى، وتفسير آياته اقبل المفسرون عليها، فاستخدموا الشعر وكلام العرب في توضيح أساليب القرآن الكريم وتفهم تعابيره.

والى جانب عنصر الشعر وكلام العرب كان هناك عنصران عُني بهما العلماء وهما عنصر القراءة وما يتفرع منه، وعنصر الإعراب وما يتفرع منه، فعنصر القراءة خير من يمثلها في القرن الثامن الإمام الجزري[٢٦] وعنصر الإعراب خير من يمثله الإمام السمين الحلبي، في تفسيره الدر المصون في علم الكتاب المكنون (في إعراب القرآن)، كما عني كثير من المفسرين بهذا الجانب المهم فجاءت تفاسيرهم مشتملة على ثروة هائلة من القضايا اللغوية والإعرابية وهذا ما جعلهم يؤلفون كتباً مستقلة في هذا الشأن. ومن الآيات التي تناولها السمين الحلبي ببيان معناها عن طريق الإعراب، وتناولها غيره عن طريق النقل أو العقل. قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا**﴾ (البقرة ١٣٧). قال

عنها : قوله (فقد اهتدوا) جواب الشرط لقوله (فان امنوا) وليس الجواب محذوفاً كما في قوله ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ**﴾ (فاطر ٤)، لان تكذيب الرسل ماضٍ محقق هناك فاحتجنا إلى تقدير جواب، وأما هنا فالهداية منهم لم تقع بعد فهي مستقبلة المعنى وان أبرزت في لفظ المضي(٢٧).

وأما الإمام ابن القيم فانه فسر (مِثْلَ) في الآية بأربعة أوجه، فقال(٢٨):

١– إن المراد به التبكيت، والمعنى: حصلوا دينا آخر مثله، وهو لا يمكن.

٢– إن كلمة (مثل) صلة.

٣– ان المراد: إنكم أمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فان امنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

٤– إن المراد: إن امنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين.

أما الإمام ابن كثير فانه فسر الآية الكريمة بما يحتمله المعنى العام للآية من دون التعقيب عليها. فقال : "يقول الله تعالى فان امنوا، يعني : الكفار من أهل الكتاب، وغيرهم بمثل ما أمنتم به أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم"(٢٩).

وقال الإمام الخازن عنها : "﴿ **فَإِنْ آمَنُوا**﴾ يعني : اليهود والنصارى ﴿**بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ**﴾ أي : بما أمنتم به، و (مثل) صلة، فهو كقوله ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ أي : ليس مثله شيء، وقيل فان أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم ﴿**فَقَدْ اهْتَدَوا**﴾ والمعنى ان حصلوا دينا آخر يساوي هذا الدين في الصحة والسداد فقد اهتدوا، ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوي هذا الدين في الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره، لان هذا الدين مبناه على التوحيد والإقرار بكل الأنبياء وما انزل إليهم، وقيل معناه : فان امنوا بكتابكم كما أمنتم بكتابهم فقد اهتدوا(٣٠).

فإذا نظرنا إلى هذه التأويلات المتعددة في الآية القرآنية وجدناها مختلفة من حيث المضمون، غير أنها تصب في مصب واحد وهذا ما عبر عنه السمين بكون الإيمان سبباً من أسباب الهداية، وعبر عنه ابن القيم بالصلة لان الدين الإسلامي موصول بالأديان السماوية، وعبر عنه ابن كثير بأن من أركان الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه التي

انزلها على رسله من غير تفريق بينهما، وعبر الخازن عنه بان الدين الإسلامي دين صحة وسداد استحال الاهتداء بغيره، قال تعالى ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ فالإسلام نسخ الديانات السماوية جميعها التي سبقته، فلا يقبل من الإنسان غيره.

فهذا التباين في تفسير الآية القرآنية بين المفسرين أعطى لها معاني متعددة عبر عنها كل منهم بحسب اختصاصه وهذا ما جعل شمولية للمعنى في إطار المادة اللغوية.

والى جانب اللغة والشعر كما أسلفنا ذكره فان ضبط مفردة القرآن الكريم يكون بحسب ما سمع ونقل إلينا بالتواتر سواء أكان في شكل نطقها أو في حركتها وهو ما يعرف بـ (علم القراءات)، فجاءت تفاسيرهم مشتملة عليها مع إبراز الصحيح والسقيم منها، وكان من اشد المدافعين عنها الإمام السمين اذ يقول : "القراءة سنة متبعة"[٣١] وبها قال ابن تيمية[٣٢].

وقد استدل العلماء بجمل كثيرة جداً من القراءات، مما جعل تفاسيرهم من أهم المصادر البارزة في القراءات القرآنية وفي أسماء القراء والرواة وفي درجة القراءات وتوجيهها، نحوياً ولغوياً، وصرفياً، وبلاغياً، وكان على رأسهم الإمام الجزري والسمين الحلبي، فضلا عن مؤلفات عديدة الفت في هذا القرن.

كانت القراءات التي اعتمد عليها المفسرون، إما لبيان مشكل أو لتقعيد قاعدة نحوية، فالإمام ابن تيمية استخدم القراءة الصحيحة في حل الخلاف الحاصل بين المثبتة والمؤولة في التأويل وذلك في تفسيره لقوله تعالى ﴿**فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ**﴾ (آل عمران : ٧). فقال : "ويجاب بجوابين احدهما : أن يكون في الآية قراءتان قراءة من يقف عند قوله : (إلا الله) وقراءة من يقف عند قوله (والراسخون في العلم) وكلتا القراءتين حق" [٣٣].

وهكذا يسترسل في معنى التأويل الوارد في الآية الكريمة بعد أن يعتمد على القراءة الصحيحة.

واستخدم ابن القيم القراءة الصحيحة لتقعيد قاعدة نحوية ردا على قراءة الكسائي والفراء، في تفسيره لقوله تعالى ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ (آل عمران ١٩).

فقال : اختلف المفسرون : هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة، فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر همزة (إن) وفتحها فالأكثرون على كسرها. على الاستئناف، وفتحها الكسائي والفراء[٣٤].

وبعد أن يقرر قراءة الكسر وتوجيهها توجيها نحوياً يذكر قراءة الكسائي بثلاثة أوجه هي :

١- أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين فهي واقعة على ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ وهو المشهود به ويكون فتح همزة (أنه) من قوله ﴿**أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ على إسقاط حرف الجر، أي بأنه لا اله إلا هو، وهذا توجيه الفراء وهو ضعيف جداً.

ويقول بعدها : ولكنْ لهذا القول – مع ضعفه – وجه، وهو أن يكون المعنى : شهد الله بالتوحيد : إن الدين عند الله الإسلام. والإسلام هو توحيده سبحانه.

٢- أن تكون الشهادة واقعة للجملتين معاً، كلتاهما مشهود بهما على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير وان الدين عند الله الإسلام.

٣- وهو مذهب البصريين أن تجعل (إن) الثانية بدلا من الأولى والتقدير شهد الله إن الدين عند الله الإسلام.

ويقول : فان قيل : فكان ينبغي على هذه القراءة أن يقول : إن الدين عند الإسلام. لان المعنى : شهد الله أن الدين عنده الإسلام. فلم عدل إلى لفظ الظاهر؟ قيل : هذا يرجح قراءة الجمهور، لأنها أفصح وأحسن، ولكن يجوز إقامة الظاهر مقام المضمر، وقد ورد في القرآن، وكلام العرب كثيراً[٣٥].

المبحث الرابع

المنهج الفقهي

يدور هذا المنهج في تفسير آيات الأحكام التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم، الذي بدأت ملامحه الأولى منذ عصر الصحابة حينما كانت أنظارهم تختلف في استنباط الأحكام من الآية القرآنية فاستمر هذا المنهج بالتطور نتيجة للتطور ألزماني

والمكاني فكثر في القرن الثامن مجتهدون من أصحاب الرأي المطلق، والمنهج المتميز وأصبح الفقه على أيديهم علماً ذا قواعد وأصول تنظم عادات الناس على الرغم من تعددهم واختلاف أعرافهم مما أدى إلى انبثاق المذاهب الفقهية على أيدي الفقهاء النوابغ الذين حفل بهم هذا العصر حتى عد من أهم العصور التي مرت بالحياة الفقهية وأكثرها نشاطاً وأغزرها اجتهاداً وأعظمها تقدماً وازدهاراً، مما جعل الباحثين والكتاب يتأثرون به في بحوثهم وكتاباتهم ولاسيما المفسرون فقد فسروا به ما يحتاج الناس إلى فهمه من آيات الأحكام حسبما يمليه عليهم اجتهادهم الحر ومذاهبهم المستقلة، فاظهروا منهجاً متميزاً في التفسير، فكان لكل مفسر منهم مذهب يعتمد عليه في اجتهاده، فالتزم الإمامان ابن تيمية وابن القيم مذهب الإمام احمد ابن حنبل، والتزم الإمام ابن كثير والخازن والسمين مذهب الإمام الشافعي (رحمهم الله تعالى) وهكذا تعددت التفاسير الفقهية تبعاً لتعدد المذاهب ولكن على الرغم من هذا التعدد فان منهجها التفسيري واحد وكثيراً ما نجد في هذه التفاسير الاستشهاد بالمذاهب الأخرى من غير تعصب لمذهب معين فكان ابن تيمية ينقل أقوالا متعددة للإمام الشافعي مع كونه حنبلي المذهب، وكذلك الإمام ابن القيم. وإذا انتقلنا الى الإمام ابن كثير نجده قد تأثر بآراء ابن تيمية في مسألة الطلاق[٣٦]. وأفتى فيها.

فكانوا يعتمدون في هذا المنهج على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وأقوال الصحابة في تفسير الآية الكريمة وبيان ما فيها من الحقيقة والمجاز العام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول التي لا يمكن ان يستغني عنها كل مفسر.

وكان اعتمادهم أيضا على اللغة والاستشهاد بالشعر وكلام العرب في بيان معاني المفردات القرآنية وكثيراً ما نراهم يستطردون في إقامة الأدلة للفروع الفقهية التي تتعلق بالآية الكريمة من قريب او بعيد.

وكما ذكرنا سابقاً، يعتمد المفسر في تفسير آيات الأحكام على مذهب إمامه ووفق أصول مذهبه وقواعد فقهه التي قد يراها، فضلا عن أراء المجتهدين من المذاهب الأخرى بعد عرض استدلالهم سواء أكانت نقلية أم عقلية.

وهذا ما فعله الإمام ابن تيمية وابن القيم في مناقشة بعض الأدلة مع التوسع فيها ويقول ابو زهرة عن ابن تيمية : "اما بحثه في الفقه فقد اشتمل على اختيارات مستقلة لم يكن فيها تابعاً لمذهب معين من المذاهب الأربعة أحيانا، كما اشتملت على استقلال فكري في بعض الاراء خرج بها عن المذاهب الأربعة ولذلك نتجه إلى دراسة فقهية ملاحظين ذلك الاستقلال الفكري، وان لم يخرج في الجملة عن منهاج احمد في الاستنباط"(٣٧).(٣٨).

ومن متابعات ابن القيم للمذاهب الأخرى تفسيره لقوله تعالى ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**﴾ (النساء ١١٣).

فيقول : "الحكمة في كتاب الله نوعان : مفردة ومقترنة بالكتاب فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة وقيل هي القضاء بالوحي وتفسرها بالسنة اعم وأشهر"(٣٩).

وإذا انتقلنا إلى الإمام الخازن وابن كثير نجدهما يعرضان المسألة عند المذاهب الأخرى، مرة بترجيحها عند إمام معين ومرة من دون ترجيح وإذا نظرنا إليهم مجتمعين فإنهم لم يخطئوا مجتهداً من المجتهدين في مسألة اجتهادية ولم يكفروا أحدا من المسلمين(٤٠).

المبحث الخامس

المنهج العلمي

يهدف هذا المنهج الى إبراز الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم ولعل من أبرزها العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها من العلوم التي أشاروا إليها.

قال تعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (فصلت ٥٣).

وتشير هذه الآية الكريمة إلى تدبر كل ما يكشفه العلم في الأفاق، وفي الأنفس، من آيات الله سبحانه وتعالى.

وقد عالج المفسرون هذه القضية في تفاسيرهم على وفق معطيات التقدم العلمي في زمنهم الذي عاشوا فيه. فالإمام ابن تيمية ناقش كثيرا من القضايا العلمية في القرآن

الكريم منها، كيفية المعاد والتولد لابد له من أصلين وغيرها. فذكر في فصل عقده للتولد، انه لابد له من أصلين وذلك في تفسيره لسورة الإخلاص، فقال : "إن التولد لابد له من أصلين وان ظن ظان أن نفس الهواء الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته من غير مادة تخرج منهما تتقلب ناراً فقد غلط، وذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منهما مادة بالحك ولا تخرج النار بمجرد الحك، وأيضا فأنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحرائق فتنزل النار..."(٤١).

ويقصد في ذلك أن أي توالد لابد له من أصلين في ذلك فالجنس البشري لابد له من أصلين الذكر والأنثى ليتم التوالد ويصل في نهاية بحثه إلى الرد على الذين يقولون بالتثليث ويقولون في مريم (عليها السلام) قولاً عظيماً، ويسوق الأدلة العقلية والنقلية في ذلك ليبطل بها دعواهم.

والإمام ابن القيم لم يقل شأنه عن أستاذه في استخدام التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ونرى ذلك واضحاً في تفسيره لقوله تعالى ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ**﴾ (الانشقاق ٩).

قال : "أي حالاً بعد حال : فأول إطباقه كونه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ثم جنيناً، ثم مولوداً، ثم رضيعاً، ثم فطيماً، ثم صحيحاً أو مريضاً، غنياً أو فقيراً، معافى أو مبتلى – إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت، ثم يبعث، ثم يوقف بين يدي الله، ثم يصير إلى الجنة أو النار، فالمعنى لتركبن حالا بعد حال ومنزلاً بعد منزل وامرأ بعد أمر"(٤٢).

وقسم الآيات العلمية آو الإشارات العلمية، الدكتور خالد فائق ألعبيدي إلى أقسام : منها الآيات التصريحية التي أشار إليها القرآن بشكل واضح وجلي، تضرب كمثل ضمن النص القرآني. ومنها الآيات التلميحية، وهي ما تمر عليه الآية في ضمن النص القرآني مروراً سريعاً من دون تفصيل. ومنها الآيات الاستنباطية، وهي التي تستنبط من النص القرآني(٤٣) وهذا كله يسير في ضمن الإطار الشامل للإعجاز القرآني في معالجة هذه القضايا العلمية فعلماء القرن الثامن كانت لهم اليد الطولى في تفسير الجوانب العلمية التي صرح بها القرآن الكريم والى جانب ذلك فقد تناولوا العديد من القضايا في الإعجاز القرآني وهذا ما ذكرناه في موضعه.

فالإمام الخازن تحدث عن الآيات العلمية في القرآن بما اثر عن الصحابة والتابعين (ﷺ) في بيانها كما في تفسير قوله تعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (فصلت ٥٣).

قال : قال ابن عباس (في الآفاق) يعني منازل الأمم الخالية وينقل الخازن قيل ما يفتح من القرى والبلاد على محمد (ﷺ) والمسلمين وهو فتح مكة، وقيل في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأنهار والنبات، (وفي أنفسهم) يعني من لطيف الحكمة وبديع الصنعة (حتى يتبين لهم انه الحق) يعني لا يقدر على هذه الأشياء إلا الله تعالى(٤٤).

ويمكن القول بأن الخازن لم يكن له اجتهاد فردي في تفسير قوله تعالى ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾ (يس ٣٩)، قال : أي قدرنا له منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل كل ليلة في منزل منها لا يتعداه يسير فيها من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين ثم يستتر ليلتين او ليلة(٤٥).

فهذا التفسير نقله عن الإمام النسفي في تفسير الآية القرآنية

وتنبه الإمام ابن كثير الى الآيات العلمية في القرآن الكريم وفسرها وفق معطيات المعنى العام لسياقها القرآني، فقال في تفسير قوله تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ (يونس ٥).

"يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وانه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما، لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل أبداره"(٤٦).

فابن كثير وعقليته المتفتحة تسعى لتوضيح الآية القرآنية، بما فهمه من القرآن نفسه وهذا ما أثبته العلم الحديث في ذلك.

ويمكن القول ان المنهج العلمي في هذا القرن سار تحت أسس ثلاثة نجملها فيما يأتي:

١– استخدام القرآن الكريم والسنة النبوية في تفسير الآيات العلمية الواردة في القرآن.
٢– الرد على كثير من الفرق والفلاسفة التي غالت في تحميل النص القرآني أكثر مما يحتمل.
٣– تفسير الآية الكريمة بكل ما يوضح معناها من أقوال الصحابة والتابعين فضلاً عن العناية بالجانب اللغوي والنحوي في بيانه.

خاتمة البحث ونتائجه

ترك لنا المفسرون ثروات ضخمة من التراث الإسلامي تجلت في تفاسيرهم المتنوعة ولم يتركوا ناحية من القرآن إلا تحدثوا عنها في بساطة تتفق مع إفهام الناس حينذاك، مما يدل على تنوع مراتب ثقافتهم ومداركم، وعكست لنا تفاسيرهم صورة عصرهم الحضاري المشرق، إلى جانب شخصية المفسر نفسه، فنبغوا في ذلك وكانوا السبب في بعث اكبر نهضة فكرية وحضارية اعتمد عليها، ونهل من معينها كل من جاء بعدهم طوال العصور التاريخية المتعاقبة حتى عصرنا هذا.

وهذه الحقبة التي عدها بعض المغرضين (الفترة المظلمة) لم تكن كذلك، بل كانت حقبة علم وثقافة، وفهم وإدراك ووعي معرفي في كل مجالات الحياة، وما هذه التفاسير الضخمة والمصنفات الواسعة الحافلة بالعلوم والمعارف إلا دليل على أن هذا العصر لم يكن متأخراً ولا مظلماً بل كان مشرقاً حافلاً بأعظم منجزات المسلمين في سائر الفنون والعلوم، ولاسيما العلوم القرآنية. واهم نتائج البحث هي:

- افضى التباين بين المفسرين في تفسير الآية القرآنية للآية معنى واسعاً، وهذا يدل على سعة تفكيرهم وعمقه في الغوص بأعماق الآية القرآنية.
- كثيرا ما يلحظ في المنهج الأثري توافق الروايات عند المفسرين لأنهم يصدرون عن أصل واحد، واغلب الروايات التي ينقلها المفسرون في اللغة متقاربة سواء أكانت في القراءة أم في الدلالة القرآنية أو الشواهد وغيرها، وهذا كله يجعل تفاسيرهم موثوقة وصحيحة نقلاً.

- أخذت القراءة القرآنية طريقها في تفاسير القرن الثامن، وقد بنى عليها العلماء قاعدة لأبحاثهم وكتاباتهم مما يدل على عنايتهم بها، إما بتقعيد قاعدة نحوية أو رد قراءة من القراءات أو قبولها معتمدين بذلك على صحة القراءة، ورسمها في المصحف وتوافقها في كلام العرب، وهذه هي الشروط التي ذكرها العلماء في قبول القراءة الصحيحة.
- اعتمد المفسرون في تفاسيرهم للاحكام الفقهية على المذاهب الاسلامية، مرة بترجيحها عند إمام معين ومرة من دون ترجيح وإذا نظرنا إليهم مجتمعين فإنهم لم يخطئوا مجتهداً من المجتهدين في مسألة اجتهادية ولم يكفروا أحدا من المسلمين.

هوامش البحث ومصادره ومراجعه

(١) احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، أبو العباس تقي الدين، ولد سنة (٦٦١) هـ بحران وتوفي سنة (٧٢٨) هـ، له مؤلفات تقدر بالمئات عدها وأحصاها تلميذه ابن القيم. ينظر: ابن حجر–الدرر الكامنة: (١/ ١٦٨)

(٢) مقدمة في أصول التفسير: (٩٣).

(٣) التفسير الكبير: (٥/ ٧٨).

(٤) ابن القيم، محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين ولد سنة (٦٩١) هـ في دمشق، وتتلمذ على كثير من العلماء ومن بينهم ابن تيمية توفي سنة (٧٤٩) هـ ينظر– ابن حجر–الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠) و احمد ماهرا لبقري – ابن القيم وأثاره العلمية: ص (١٠٩).

(٥) التفسير القيم للإمام ابن القيم، جمعة محمد أويس الندوي: (٣١٦–٣١٧).

(٦) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، عماد الدين، ولد سنة (٧٠١) هـ وتوفي (٧٧٤) هـ في دمشق. (ينظر: ابن كثير– البداية والنهاية: (١٤/ ٣١) و للزركلي –الأعلام: (١/ ٣١٧).

(٧) ينظر– تفسير القرآن الكريم: (٢/ ٤٨١).

(٨) الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم الشيخي، علاء الدين، ولد ببغداد سنة (٦٧٨) هـ وانتقل إلى دمشق وتوفي فيها سنة (٧٤١) هـ ينظر:ابن العماد الحنبلي– شذرات الذهب (٦/ ١٣١).

(٩) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل: (٣/ ٢٥).

(١٠) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٢٨١).

(١١) المصدر نفسه: (٢/ ٢٨٢).

(١٢) التفسير القيم: (٣١٧–٣١٨).

(١٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٢٨).

(١٤) التفسير القيم: ص (٢٣٤).

(١٥) المصدر نفسه: ص (٢٣٥).

(١٦) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل: (٢/ ١١).

(١٧) الإتقان: (٢/ ١٧٦).

(١٨) المصدر نفسه: (٢/ ١٧٦).

(١٩) ابن تيمية حياته وعصره: ص (٢٢٠).

(٢٠) السمين الحلبي: احمد بن يوسف بن عبد الدائم، ابو العباس شهاب الدين ولد بحلب وتوفي في مصر سنة (٧٥٦) هـ عالم بالقراءات والتفسير. ينظر: شمس الدين الجزري –غاية النهاية: (١/ ١٥٢) و محمد راغب– أعلام النبلاء: (٥/ ٢٤).

(٢١) التفسير القيم: ص (٥٠٢).

(٢٢) المصدر نفسه: ص (٥٠٣).

(٢٣) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٤٤١).

(٢٤) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/ ٣٥١).

(٢٥) مقدمة في أصول التفسير: ص (٤٨).

(٢٦) الجزري : محمد بن محمد بن علي بن يوسف، ابو الخير شمس الدين العمري، ولد سنة (٧٥١) هـ بدمشق وتوفي سنة (٨٣٣) هـ له: النشر في القراءات العشر وغيره

(ينظر –ابن العماد الحنبلي – شذرات الذهب: (٧/ ٢٠٤) ورضا كحالة–معجم المؤلفين: (١١/ ٢٩١).

(٢٧) الدر المصون: (٢/ ١٤١ – ١٤٢).

(٢٨) التفسير القيم: ص (١٣٩).

(٢٩) تفسير القرآن العظيم: (١/ ١٨٧).

(٣٠) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل: (١/ ٩٥).

(٣١) الدر المصون: (٧/ ١٦) و (٨/ ٨٢).

(٣٢) ينظر – مقدمة في أصول التفسير: (١١٠).

(٣٣) تفسير سورة النور: ص (٨٢).

(٣٤) التفسير القيم: ص (٢٠٠).

(٣٥) المصدر نفسه: ص (٢٠٠ – ٢٠١).

(٣٦) الزركشي : بدر الدين ابو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله المصري، ولد سنة (٧٤٥) هـ في مصر، رحل الى دمشق وحلب، توفي سنة (٧٩٤) هـ من اثاره : البرهان في علوم القرآن. ينظر: ابن العماد– شذرات الذهب: (٦/ ٣٣٥).

(٣٧) ينظر ابن تيميه– التفسير الكبير: (٣/ ٢٥٨) و ابن تيمية –الفتاوى الكبرى: (٣/ ٥).

(٣٨) ابن تيمية حياته وعصره : ص(٣٥٠ – ٣٥١).

(٣٩) التفسير القيم: ص (٢٢٧).

(٤٠) ينظر: د. محسن عبد الحميد– تفسير آيات الصفات : ص (٢٤ – ٢٧).

(٤١) تفسير سورة الإخلاص: ص (٢٤).

(٤٢) تفسير القيم : ص (٥٠٩ – ٥١٠).

(٤٣) ينظر: القرآن منهل العلوم : ص(١٧٦).

(٤٤) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل: (٣/ ٩٥)

(٤٥) المصدر نفسه: (٣/ ٩٦).

(٤٦) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٠٧).